د . سيد حامد حريز

جذور الأدب الشعبي السوداني

قبل ان اخوض في مناقشة بعض جذور الادب الشعبي السوداني أود ان أوضح مفهومي للادب الشعبي مع تسليط الضوء على الموثيقات الرئيسية لهذا النوع من الادب . كما أود ان احدد رقعة البحث، فالادب الشعبي خضم يزخر بالانماط الفنية المتعددة والسودان قطر شاسع مترامي الاطراف . ولذلك يلزمنا شيء من التحدد الذي يفرض نفسه دائما على البحث . اذكر بعد ذلك ان هذا البحث يتناول بوجه خاص منطقة حوض وادي النيل في شمال واواسط القطر . ولكنه لا ينحصر انحصارا تاما في هذه المنطقة ، ففي بعض الاحيان يقودنا البحث الى بعض قبائل غرب السودان او حتى الى بعض المجموعات الافريقيةالمسلمة خارج السودان . وبالنسبة لموضوع البحث يلاحظ القارىء انني قد ركزت اهتمامي على القصص الشعبي لانه تتعذر دراسة جميع فنون وضروب الادب الشعبي في حيز ضيق وسطور معدودة . ولكن رغم تركيزي على القصة الشعبية ـ وبالذات في الشطر الثاني من البحث ـ تجدني الجأ للشعر الشعبي والامثال واستعمل هذين الفنين من فنون الادب الشعبي في شيء من الايجاز .

قبل ان نبدأ حديثنا لا بد من ان نحاول توضيح مقومات الادب او العناصر التي تجعل من العمل الفني اثرا شعبيا او غير شعبي . كما يجب تحديد ماذا نعني بكلمة شعبي في قولنا «ادبشعبي » « وشاعر شعبي » « ونص شعبي » ... الخ فقد شاعت مفاهيم خاطئة كثيرة عن طبيعة التراث الشعبي ، ومن هذه المفاهيم الخاطئة ما يتصلبالمقومات الاساسية للادب الشعبي . فما هي اذا المقومات الاساسية للادب الشعبي ؟

اللغة

فاذا تناولنا بالبحث التراث الشعبي القولي فهل اللغة هي ما يميز هذا النوع من الادب عما سواه ؟ لا شك ان اللغة العامية مما يميز التراث الشعبي القولي ، وليس هناك شيء اكثر توقعا من ان نجد تراث الشعب وادبه مكتوبا بلغة الشعب ، اعني اللغة العامية ولكن ليست اللغة هي المرتكز الاساسي كما ان لغة التخاطب العامية بين بعض قبائل السودان تقارب القاموس الكلاسيكي الفصيح . فاذا نظرنا من حولنا وجدنا من الشعراء المعاصرين من جعل العامية قالبا لشعره. وقد نجد من يكتب شعرا حضريا معاصرا باللغة العامية ، او بمعنى اخر يمكن ان نجد شعرا عامي اللغة ولكنه غير شعبي المضمون والمحتوى والتجربة الشعرية . ومن يكتب مثل هذا الشعر يمكن ان يدخل تحت لواء « شعراء العامية » والفرق شاسع بين شعراء العامية والشعراء الشعبيين .

وقد نجد بين شعراء العامية من يكتب شعرا عامي اللغة وشعبي المضمون والمحتوى وهذا كثير وغالب . وهذا النوع من الشعر وهذا الضرب من الشعراء قريب من الشعر الشعبي ، ومع ذلك يجب التمييز بين الاثنين اللهم الا اذا اتفق النوعان من الشعر والشعراء في المقومات الاخرى للشعر الشعبي . ولو حدث ذلك لصار شعر شعراء العامية شعرا شعبيا . من هذا يتضح ان اللغة ليست العامل الاساسي للشعر الشعبي .

شفاهية النص :

لا شك ان شفاهية النص الشعبي وما يلازمها من عملية انتقال النصوص عن طريق الرواية من خواص الادب الشعبي أو التراث الشعبي القولي بوجه عام ، وليس هناك من ينكر ذلك . ولكن يجب الاحتراز هنا أيضا ، ويجب الا نركز على شفاهية النص اكثر مما ينبغي او ان نعتقد انها العامل الوحيد او الاساسي في تحديد النصوص الشعبية . فالكتابة والتقييد لا يؤثران هذا التأثير المباشر في مكانة النص من حيث وضعه ضمن الادب الشعبي او الادب الرسمي المكتوب. فكون ان ادبا او نصوصا معينة لم تكتب بل ظلت في هيكلها الشفاهي لا يحتم علينا وصفها بصفة الشعبية ووضع ديباجة الادب الشعبي عليها . وكذلك كون ان نصوصا شعبية معينة قيدت بالكتابة لا يعني حرمانها من صفة الشعبية التي اكتسبتها او اخراجها عن زمرة الادب الشعبي . والكثير منا يعلم ان الف ليلة وليلة قد قيدت بالكتابةوطبعت وترجمت لعدة لغات ولكنها رغم ذلك احتفظت بمكانها في عالم الادب الشعبي وستظل كذلك رغم الكتابة والتقييد . من هنا يتضح كذلك ان شفاهية النص من المقومات المهمة ، لكنها ليست كل شيء بالنسبة للادب الشعبي كما يعتقد بعض الناس .

التداول :

من اهم خصائص الادب الشعبي بل التراث الشعبي قاطبة ان يشيع بين الناس وتتداوله الجماعة وتتناقله شفاهة من شخص لاخر ومن جيل لجيل . وبذلك يصبح ذلك الادب عبارة عن تراث مميز لهذه الجماعة ينقله الجد للاب والاب للابن والابن للحفيد . وهو يحافظ على العديد من السمات التقليدية بالرغم من رحلته عبر الزمان . وهذه العناصر التقليدية التي يزخر بها مضمون الادب الشعبي هي التي تعبر عن روح الجماعة . فالتقليدية صفة مهمة بالنسبة للادب الشعبي ، بل وبالنسبة للتراث الشعبي عامة . ولكن الادب الشعبي يحاول دائما ان

يضمن استمراريته ، لذلك تجده كثيرا ما يضفي الاضواء والمفاهيم الجديدة على العناصر التقليدية . فهنالك اذا عملية تحديث مستمرة . يجب ان نذكر هنا ان عملية التداول قد تمتد احيانا عبر الاجيال كما ذكرت آنفا ، ولكنها قد تقصر احيانا ولا تتعدى سنوات معدودة . فنعلم من واقع السودان ان من بين الشعراء من قال شعرا معبرا عن روح الجماعة فتغننت به وتداولته فصار ترانا شعبيا في بضع سنين .

التعبير الفني :

الفن والابداع من الدعائم الرئيسية للادب الشعبي فقد يصاغ نص معين باللغة العامية اللازمة للتراث وقد تتوفر له صفات الشعبية والشفاهية والتداول ومجهولية المؤلف والعناصر التقليدية كلها مجتمعة ولكنه رغم ذلك لا يدخل تحت لواء الادب الشعبي . فلا بد لمثل هذا النص من ان يتصف بالتعبير الفني المتميز الذي يجعل منه ادبا . فالعالم البلجيكي جان فانسينا يخبرنا مثلا بان الاشاعة لا تدخل تحت زمرة التراث رغم انها تنقل وتتداول شفاهة وتعبر عن روح الجماعة لانها تفقد العمق التاريخي (١) . ونضيف هنا بانها تفقد العمق التاريخي كما انها تفقد ما هو اهم وهو التعبير الفني .

مجهولية المؤلف

في بداية الحديث عن مجهولية المؤلف يجب ان ننوه لشيء بديهي للغاية وهو ان الفرق شاسع بين ان يكون نص معين مجهول المؤلف وبين ان يكون هذا النص « معدوم » المؤلف . وفي الحقيقة انه لكل نص شعبي (او غير شعبي) مؤلفا وقد يحدث كثيرا ان تنصهر شخصية الفرد (المؤلف) في الشخصية والنفسية الجماعية ونتيجة لذلك نجهل المؤلف الاصلي لبعض النصوص الشعبية . ولكن يجب الا نعتقد ان مجهولية المؤلف هي الخاصية الاساسية للتراث الشعبي او العمود الفقري لمقوماته . وليس ضروريا ان نجهل المؤلفين الاصليين لجميع النصوص الشعبية ومنهم من يعيش بيننا ونعرف سيرته ونحفظ شعره ونعرف المناسبات التي قال فيها هذا الشعر . ولكن هذا بالطبع لا ينفي ان صفة المجهولية هذه يتسم بها الكثير من التراث الشعبي من شعر واساطير وآحاجي وامثال ... الخ .

ولا يمكن ان نتحدث عن الشعر الشعبي في السودان من غير ان نذكر الشاعر الشعبي الشهير الحاردلو الذي تعرف باسمه بعض القصائد (وتنسب له قصائد اخر) فهل تخرج هذه القصائد عن دائرة الادب الشعبي لمجرد اننا نعرف مؤلفها ولا نجهله ! وكما ذكرت انفا هنالك العديد من الشعراء الشعبيين المعاصرين الذين نعرف قصائدهم ونستوثق من صحة نسبتها اليهم من امثال احمد عوض الكريم ابوسن والصادق حمد الجلال وود شوراني .. الخ . فمعرفتنا لهم واستوثاقنا من نسبة قصائد معينة اليهم لا يسقط عن هذه القصائد صفة الشعبية.

وحتى اذا تركنا الشعر الشعبي المعاصر وتناولنا بالبحث ما هو اقدم تاريخا واكثر ارتباطا بالشعب واكثر تعبيرا عن نفسيته كالمثل الشعبي ، فاننا نجد ان مجهولية المؤلف ليست شيئا الزاميا رغم انها اكثر اهمية هنا . وقد يعلم بعضنا ان هناك امثالا تنسب لقائل معين ما زالت سيرتها ترتبط بهذا القائل .

اذا رجعنا للمثل الثالث من مجموعة امثال الشيخ بابكر بدري وهو الابي ديكه مكشن (٢) نعلم ان هذا المثل ينسب للشيخ حسن ود حسونة ويروى ان الشيخ حسن ود حسونه هو اول من قال هذا المثل وعنه اخذ وباسمه ارتبط ، وعلى ذلك فالشيخ حسن ود حسونة هو مؤلف هذا المثل وكثير منا يعلم ان هناك مجموعة كثيرة من الامثال تنسب للشيخ فرح ود تكتوك . ما ارمي اليه هو ان صفة خاصية مجهولية المؤلف لا تنطبق على كل الامثال وفي كل الظروف ، فمتى ما تيسر لبعضنا معرفة القائل الاصلي الاول للمثل لم يعد هذا المثل مجهول المؤلف بالنسبة لهم ، وعليه فمجهولية المؤلف ليست شرطا الزاميا نرتبط به ارتباطا كليا عند تحديدنا لمواد الادب الشعبي وتوضيح مقومات هذا التراث . ولكنها دون شك معلم مهم بالنسبة لهذا التراث .

وفي مجمل الحديث عن مقومات الادب الشعبي يمكن القول بان عامية اللغة وشفاهية النص ومجهولية المؤلف وتداول هذا النوع من النصوص وتبني المجموعة له كلها تدخل في تقويم التراث الشعبي. ومن صفاته كذلك الانتحال الذي ينتج عن كثرة التداول والشيوع . ولو شئنا ان نؤكد اهمية خاصية معينة دون الخواص الاخرى لاخترنا التداول وتبني المجموعة لهذا النوع من التراث فتبني المجموعة تبنيا تاما للشعر الشعبي مثلا وتداولها اياه هو المعلم الاساسي الذي يجعل من هذا الشعر شعرا شعبيا .

واذا ركزنا حديثنا عن الادب نلاحظ انه لكي يكون الادب ادبا شعبيا لا بد له من ان ينصهر في روح المجموعة التي ينبع منها ويكتسب شعبية منها . كما تتوارى شخصية الفرد خلف شخصية الجماعة مما قد يؤدي لمجهولية المؤلف الاصلي في كثير من الاحيان (وليس دائما) . واذا دققنا البحث والنظر في شعر شعبي مثل شعر الحاردلو نجد ان المجموعة قد اثرت في هذا النوع من الشعر قبل صياغته وبعدها . اثرت فيه قبل صياغته لان المثل والقيم الخلفية والجمالية والشعرية التي ينضوي عليها هذا الشعر مستقاة من قيم المجموعة . واثرت فيه بعد صياغته لانها تداولته وتغنت به وحورته واضفت عليه شيئا من روحها ونكهة من عندها حتى صار ملكا لها. عندما تصبح سيرة الشاعر وشعره عرضة للتحوير والتبديل والانتحال، وعندما تصبح ابياته وقوافيه ضربا من الملك المشاع لقبيلته او لابناء وطنه نفهم ان هذا الشاعر قد اصبح في عداد الشعراء الشعبيين .

جذور الادب الشعبي السوداني :

حينما نتناول بالدراسة اصول الادب الشعبي السوداني نجد ان الحقب التاريخية المختلفة واهم احداثها بين الخلفيات الرئيسية لهذا الادب بعض هذه الحقب والاحداث تنعكس انعكاسا طفيفا في الادب الشعبي فنرى فيه الاثار وردود الفعل التي يحدثها في روح الجماعة سلبا كان ذلك ام ايجابا . وفي بعض الاحيان نجد ان تفاعل «الجماعة» مع الاحداث ومع المقومات الثقافية تضرب في اعماق وجدان « الجماعة » وتؤثر في ادابها اثرا جذريا .

في الجزء التالي من هذا البحث سأحاول مناقشة بعض جذور الادب الشعبي السوداني بالنسبة للحقب التاريخية الاولى . قد نجد اننا في حاجة لاستعمال بعض مدونات القصة الشعبية الفرعونية (المصرية) التي تتحدث عن السودان وترتبط به ارتباطا وثيقا .

تبين لنا بعض دراسات ومدونات القصة الشعبية في شمال وادي النيل ان علاقة مصر الفرعونية بمملكتي كوش ومروى قد انعكست في القصة الشعبية لشمال الوادي منذ اقدم العصور . فنجد ان قصة « سانتي خاموس » وقصة « الملاح التائه » يرجع تاريخهما الى قبل الميلاد وتعكسان بعض العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية بين مصر والسودان (١) . ومن القصص الفرعونية التي حظيت بعناية الدارسين قصة « الشقيقان » التي يرجع تاريخها الى قبل الميلاد وتعتبر

J . Vansina ' Oral Tradition : A Study in Historical Me - (١)
thodology , PP . 20 . London , R. and Kegan Paul ,1961
P. 20 .

(٢) بابكر بدري : الامثال السودانية ، بيروت ، بلا تاريخ ص ١ .

I - Maspero , Popular Stories of Ancient Egypt (١)
P . IXXXI

من اقدم النصوص الشعبية التي تم تدوينها . نجد ان اجزاء باكملها من هذه القصة والعديد من « موتيفاتها » ، قد دخلت في اشهر القصص الشعبية السودانية امثال « ود النمير »و« فاطمة السمحة ».

نجد ان قصة « الملاح التائه » تركزت على العلاقات التجارية بين القطرين ، بينما نجد ان قصة « سانتي خاموس » تركز على العلاقات السياسية في بعض مراحلها الحرجة وما لازم تلك الظروف من حرب ومهادنة . وتعكس هذه القصص (بالذات القصة الثانية)بعض المعتقدات مثل الايمان بالسحر . كما تعكس العلاقة الوثيقة بين السلطة السياسية والدين (١) نرى ان السلطة السياسية التي تتحدث عنها قصة « سانتي خاموس » تدعمها سلطة دينية ترتكز على السحر وعلى القوى الخارقة . وبقدر قوة هذا الدعم ونجاحه يكون الانتصار الحربي والسياسي . هذا الارتباط بين السحر والانتصار الحربي والسياسي الذي يرجع الى ما قبل الميلاد كما ذكرت بين العناصر التي نلاحظ استمراريتها وكثرة ورودها في القصةالشعبية السودانية في مراحلها المختلفة . ومن الامثلةالتي يمكن ان نذكرها هنا قصة الشيخ علي ساودبري (٢) والقصص الدينية التي ترد على هذا النمط تفوق الحصر وكثير منها ما زال يتداوله الناس حتىيومنا هذا .

واذا واصلنا الحديث عن تلك الجذور الاولى للقصة الشعبية نجد ان الديانات والمعتقدات الشعبية التي سبقت المسيحية والاسلام تمثل رافدا رئيسيا في تكوين هذه القصص .فنجد ان الكثير من تلك القصص او بعض « موتيفاتها » تدور حول تقديس النيل وما يقدم له من قربان وما يتصل به من طقوس . نجد كذلك من القصص ما يرتبط بتقديس الابار مثل قصة « بير سعدالله » وما يحكى عن تقمص الارواح وعبادة الاسلاف و« الطوطمية » .. وخلافه . فكان تلكالقصص صور ادبية لشعائر هذه الديانات الاولى .

رغم ان فترة المسيحية قد تركت اثارا واضحة في بعض عادات وادي النيل الا ان الاثر المسيحي على الادب الشعبي لم يكن بقدرالاثر الاسلامي الذي عقب المسيحية ولا بقدر الاثرين المحلي والفرعوني اللذين سبقا هذه الفترة .

منذ بداية تزايد الهجرات العربية دخل السودان في مرحلة جديدة من تاريخه الثقافي . ويعتبر الكثير من المؤرخين عام ٦٥١ مكنقطة التحول بالنسبة للعلاقات العربية السودانية (النوبية) وهو العام الذي ابرمت فيه معاهدة البقطر بين عبدالله بن سعد وبين النوبة . وارى ان هذه المعاهدة ترسم وتحدد ما جاء بعدها من علاقة العرب بالنوبة ، بل واذهب الى ابعد من ذلك واقول انها حددت شخصية الثقافة السودانية واطار تطورها .

نعلم ان فقهاء الاسلام كانوا يقسمون العالم الى قسمين « دار الحرب » ويعني بها غير المسلمين ـ و « دار السلام » والمفروض ان تسعى « دار السلام » اي المسلمون ـ الى ضم « دار الحرب » .ونرى ان العلاقات العربية النوبية لم تتبع هذه المعادلة . فلقد اضيفت للمعادلة فئة ثالثة هي « دار المهادنة » . ومن خلال فكرة المهادنة سياسيا وثقافيا بدأت العلاقات العربية الاسلامية السودانية النوبية . وبذلك اختطت الثقافة السودانية نهجا جديدا . واعتقد ان الكثير منأصول الادب الشعبي السوداني ترجع لهذا النهج ـ نهج المهادنة وسنحاول توضيح ذلك . ومع دخول العرب للسودان دخلت العديد من القصص الشعبية العربية للسودان وذاعت وانتشرت في بقاعه المختلفة .من بين هذه القصص سيرة « عنترة بن شداد » وسيرة « ابو زيد الهلالي » والكثير من نوادر جحا وقصص الف ليلة وليلة وقصص الانبياء وبعض كرامات الاولياء (١) . وبجانب الكثير من هذه القصص العربية التي تكاد تكون قد دخلت مكتملة الى السودان استفاد الرواة من ما وصل اليهم من حوادث التاريخ العربي والاسلامي واخبار البطولات وسير الحب والمحبين المشهورين ونسجوا على غرارها قصصا سودانيا تهيمن عليه الروح والنكهة العربية .

ولا شك في ان الاثر العربي كان وما زال من اهم الروافد التي اثرت الادب الشعبي السوداني وارتبطت بجذوره وتكوينه وتطوره .

وعند الحديث عن اصول الادب الشعبي السوداني او عنمقومات الثقافة السودانية بوجه عام لا بد من ذكر ان فترة الفونج والممالك الاسلامية شهدت انصهار الثقافات السودانية المحلية في التراث الاسلامي . ففي اثناء تلك الفترة بدأت الثقافات المحلية تتشرب روح التراث الاسلامي . وعن طريق اعتناق وحب الاسلام توطدت الصلة باللغة العربية (لغة الاسلام) وبالعادات العربية بل وبالشخصية العربية . عن طريق هذا المدخل الروحي تم الاسراع في عملية الاستعراب المكثف . ونجد ان شخصية « العالم الغريب » (Wise Stranger) الذي يمثل الجانب العربي الاسلامي والذي يظهر فجاة في الافق الافريقي (السوداني) ويحمل للناس الخير والمعرفة فيقبلون عليه ويحتضنونه ثم يجعلونه منهم بل وينتسبون اليه ويعرفون به ، نجد ان الادب الشعبي السوداني يزخر بهذه الصورة التي تلخص مسار وتطور العلاقات الافريقية الاسلامية العربية .

نرجع لفكرة المهادنة السياسية والدينية والعرقية ونناقش بعض جذور الادب الشعبي السوداني بالرجوع لهذه الفكرة لانها تمثل اطار تطور الثقافة السودانية . فاذا تناولنا بالتحليل الواقع العرقيللفرد السوداني كما يمثلها الحس الشعبي وكما يصورها عند رسم الشخصيات الهامة فيالاساطير والسير والاحاجي ، نجد انالرواة يركزون على تصوير هذه الشخصيات على اساس انها مزيج منالعنصر الحامي ـ السامي (الافريقي العربي) . فمثلا الاساطير والروايات التي ترسم شخصية عبدالله جماع وتربطه ببداية تاريخ العبدلاب ، تركز على انه قد وفد اصلا من الجزيرة العربية كما تبرز انه اختلط بالدم الافريقي ابان حضوره الى السودان او بصورة اخرى توضحهذه الروايات الشعبية ان سلالته (العبدلاب) عربيو الاب وافريقيو الام والمنبت (٢) ونجد في نفس هذه الصورة المبسطة لواقع السودان العرقي تتكرر بين المجموعات العربية الاسلامية المختلفة في السودان وبدرجة بسيطة من الاختلاف . نجدها مثلا بين الجعليين (٣) وبين النوبة (٤)

---

(١) كلمة الدين في هذه العبارة مستعملة في مضمونها العريض الذي تنضوي تحته الديانات السماوية وما سبقها من ديانات ارتكزت على الوثنية والطوطمية والسحر وخلافه .

(٢) يوسف فضل حسن (محقق) كتاب الطبقات لابن ضيف الله، الطبعة الاولى ، الخرطوم ١٩٧١ ، ص ٢٩٥ .

(١) For further information on such narratives : See , Sayyid Hurreiz , Ja 'aliyyin Folktales : an Interply of African Arabian & Islamic Elements , PH . D . Dissertation , Indiana University , 1972 , Appendix no . I .

(٢) احمد عبدالرحيم نصر ،تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ، سلسلة دراسات في التراث السوداني ، ٧ ، الخرطوم ١٩٦٩ ص ص ١٤ ـ ٢٤ .

(٣) Sayyid Hurreiz , Op . Cit .

(٤) R . C . Stevenson , « Some Aspects of the Spread of Islam in the Nuba Mountains » in I . M . Lewis (ed . Islam in Tropical Africa . London . 1966 .

وبين الفور (١) . واذا خرجنا عن اطار السودان سعيا وراء المقارنة فاننا نجد نظائر هذه الصورة في بعض بلاد افريقيا المسلمة . نجد نفس هذه الصورة تتكرر في مالي (٢) وفي نيجريا (٣) بين الهوسة على وجه الخصوص .

اما بالنسبة للسير والقصص الشعبي العربي الذي وفد مع العرب فنجد ان بعض السير مثل « سيرة عنترة » و« ابو زيد الهلالي » تلقى رواجا وقبولا بين الناس لانها ترتبط بواقعهم العرفي اكثر من غيرها ولان لها دلالات عميقة بالنسبة للرواة السودانيين الذين يروون هذه القصص وبالنسبة لجمهور المستمعين . نجد ان الروايات السودانية تقف وقفة خاصة عند « الموتيفات » التي تحكي عن سواد لون البطل او التي تذكر انه ولد في افريقيا او ان احد والديه من اصل افريقي. نلاحظ هذا في الروايات السودانية لهذه السير (٤) كما نلاحظه في بعض اجزاء مصر وخاصة بين النوبيين (٥) .

(١) نعوم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان ، القاهرة ١٩٠٣ ص ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٢) D . T . Niane , Sundiata : An epic of Old Mali , London , 1969 , P . 2 .

(٣) R.S. Rattray , Hausa Folklore , Vol . I , London , 1913 . PP . 7 - 8 .

(٤) عبدالمجيد عابدين ، القصة الشعبية في السودان ،الخرطوم ١٩٦٤ ، ص ١٩ .

(٥) عبدالحميد يونس ، الهلالية في التاريخ والادب الشعبي، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٩٩ .

ما حدث بالنسبة للواقع العرفي من محاولة ربط الثقافتين او الانتمائين الافريقي المحلي بالعربي الاسلامي حدث كذلك بالنسبة للمحيط الديني وبالنسبة للانظمة السياسية والاجتماعية . فاذا بدأنا بالمحيط الديني وتناولنا بالبحث ظاهرة عبادة الاسلاف (Ancestors Worship) على سبيل المثال فقد يمكننا ان نرى ما حدث من تمازج وانصهار الاصلين بالنسبة للواقع السوداني وبالنسبة للادب الشعبي السوداني . نعلم ان عبادة الاسلاف اعتقاد افريقي ما زال يمارس بين بعض المجموعات السودانية غير المسلمة ولا شك ان المجموعات السودانية المسلمة اخذت نصيبها منه ولا نزال نرى بقايا هذا الاعتقاد بين بعضها . هذا الاعتقاد الافريقي يتنافى وروح الاسلام ، وكان المتوقع ان يزول اويتلاشى بمجرد ان احكم الاسلام روحه وتعاليمه . ولكن هذا لم يحدث ، ونجدنا نرى المجتمعات السودانية المسلمة وكأنها تتحين الفرص لممارسة هذا الاعتقاد . فمثلا عندما يكون جد القبيلة او جد احد فروعها من الاولياء او من المشهود لهم بقدر من التقوى والورع تكون الفرصة مؤاتية لان مثل هذا الشخص يجمع بين « السلفية »والدين. وفي مثل هذه الاحوال تبدأ المهادنة الثقافية والدينية التي اشرنا اليها وتولد انماط عقائدية وادبية جديدة ومتميزة ترتبط بواقع السودان وبامتزاج الثقافتين تحت لواء هذا الاطار المتفرد . فمن منطلق الدين (واعني به في هذه الحال الاسلام في صورته المحلية المحببة للشعب (Popular Islam) يبدأ الشعب في خلق وترويج ونشر القصص الديني الذي يحكي عن مناقب وكرامات هذا الجد الصالح ،والذي يستمد روحه من هدي وروح الاسلام . ولكن من يكلف نفسه عناء البحث في محتوى هذا القصص يجد انه يزخر بنفس « الموتيفات » والمعتقدات والفلسفة التي تتميز بها عبادة الاسلاف في صورتها المحلية الافريقية.

محمود درويش

محاولة رقم ٧

في مجموعته الجديدة

●

وينتشر البحرُ
بين السماء ومدخل جرحي
واذهب في افق ينحني
فوقنا
ويصلي لنا
او يكسرنا
هذه الارض تشبهنا
حين ناتي اليها
وتشبهنا
حين نذهب عنها .

●

آه !
ما اصغر الارض
ما اكبر الجرح !
آه ،
ما اكبر الارض
ما اصغر الجرح !

●

صدر حديثا

مجتبى عبدالله

عاشقة القمر البني والفتى الريفي

تَشهّتني ...
براعمها اخضرار الصبوة الاولى،نداء البوح عبر صراخها الازلي
عطاء اللدة الصوفية العينين
عطاء المرأة الانثى .. عطاء الطهر حين يفوح عنقودا ،
وطمي توهج ليلي
حنين الغابه الولهي ، وجوع بداوة جبلي
تمدّ رعونة الحُمى ، وشوق نزيفها الجسدي
فتكتمه .. تعرّيه ، على نهدين ممتلئين بالرغبه
وعمق فؤادها بئر من الرهبه
وتخشى الطهر في مهد العفونة يبذر التلقيح ، تُنبت،
تورق الجثه
تَشهّتني ...
ورغم صهيلها الفجريّ ما انفتقت جرار الصخر والتوبه
وما روّت لها جذرا ، ولا نبتت صحاريه ، عيونا من رؤى القطرات
وما غسلت صرير الضوء حين يلوب في اعماقها سرا
وما فتحت رتاج جناحه جسرا من الفيمات
تمدّ يدا ، تقطّع شوقها المحموم اغنية وحبلا من لهيب الآه في الشرفات
وتخشى الصبح .. تُنبت .. تورق الجثه
وتخشى الفجر حين ذبابه البرّي يحمل ريحها العاهر
تَشهّتني ...
وزادت شحنة الحُمّى على اعصابها وفؤادها النابح
براري الصهد والتعذيب مدّت رحمها الدموي صوب النهر
وعبر فحولتي جمر النزوع الخصب ينمو حقده فجرا
وفي ذاتي مواء عويلها المجنون ، رؤيا مدّها الطافح
تَشهّتني ...
وحين نبذت صمت الريف اعمتني رؤى المدن
ورشّتني نفايات الضياع المُرّ ، هزّتني عرى البشر
وحين فقأت عين براءتي ، طهري ...
حملتْ تفاهتي وخطيئتي ذنبا يؤرقني ..!

كما ذكرت آنفا هذا الامتزاج في بوتقة الواقع السوداني حدث كذلك بالنسبة للانظمه السياسية والاجتماعية . فلقد حاول الادب الشعبي آن يربط بين الانظمة المحليه والانظمة العربية ، كما جعل اختلاف هذه الانظمة وما ترتب على ذلك من اختلال واضطراب فموازنة موضوعا له . ولكن هذا يحتاج لبحث يطول ويدعو للاسهاب . لذلك اكتفى هنا بالامثلة من الواقع العرقي ومن النظام الديني .

خلاصة البحث :

اصول الادب الشعبي السوداني ترجع الى جذور وروافد محلية وفرعونية (بعضها تشربت بالاثار الافريقية والرومانية) ومسيحية وعربية اسلاميه . كما خضع هذا الادب في مراحل نموه المتقدمة الى الاثر التركي والغربي الحديث . ورغم ان الاثر التركي كان في الغالب الاعم بمثابة ردود فعل للحكم التركي اكثر من كونه انصهار عناصر تركية في التراث السوداني ، الا انه لا يمكن اهماله . فاننا نجد ردود الفعل للاثر التركي تنعكس في الشعر الشعبي والامثال . والاثر الغربي الحديث يطل على سطح وتفاصيل الادب الشعبي اكثر من تاثيره على جوهر هذا التراث ، ولكن لا يمكننا اهماله لانه اخذ في الازدياد سواء كان ذلك على حياتنا او على ادبنا . ولكن كلا الاثرين الاخيرين لا يرتبط بالاصول والجذور الراسخة للادب الشعبي السوداني . وان قدر لنا آن نسلط الاضواء على اصول دون سواها فاننا نركز على الاصول الافريقية ـ المحلية والاصول العربية الاسلامية . فامتزاج وانصهار هذين العنصرين وهاتين الثقافتين تحت ظروف تاريخية واجتماعية وسياسية محددة هو الاطار والمحك الذي لا مناص من الرجوع اليه عند مناقشة تكوين الشخصية السودانية واصول الاداب السودانية .

لا شك في آن الادب الشعبي تجسيد للحس الجماعي وهو يعكس تاريخ وواقع وتطلعات الشعب ، او بعبارة اخرى يرتبط بماضيه وحاضره ومستقبله . طالما ان الحال كذلك فالاصول الافريقية ـ المحليةوالعربية ـ الاسلامية التي تحدثنا عنها والتي تضرب في اعماق التاريخ ، هذه الاصول ترتبط بواقعنا الذي نعيشه اليوم . دعنا ننظر حولنا في هذه اللحظة (يناير ١٩٧٥) من واقع سودانا المعاصر . فماذا نرى ؟ اعتقد اننا ندرك من الوهلة الاولى ان علاقات المجموعات العرقية المختلفة في السودآن وارتباط جنوب القطر بشماله وامكانية التعايش بين المجموعات والديانات المختلفة واحترامها لبعضها البعض ، ندرك ان تلك الامور من اهم ما يدور في الافق السوداني . وكذلك نجد ان الانتماء العربي الافريقي ودور السودان ومقدرته على ربط العالمين الافريقي والعربي يهيمن على التفكير السياسي ومما تعكسه وسائل الاعلام بصورة مكررة . ما ارمي اليه آن التراث يرتبط بالحياةوبالواقع. واصول التراث التي ترتبط بتاريخنا وباصول ثقافتنا لها استمرارية واثر مباشر على واقعنا وافقنا السياسي وترتبط بما يشغل بالنا في هذه اللحظة من حاضرنا .